هذه الموضوعات التي نالت الجائزة في المباراة الأدبية

التربية الوطنية الاستقلالية

وأثرها في بناء الأمة

للأستاذ محمد عبد الباري

— ٢ —

النشأة الأولى

لست أدخل في مناقشة مسائل التربية وعلم النفس وأنا أحاول كتابة كلمة مفروض أنها للكافة كما هي للخاصة ، ولهذا فإني أستعرض الأدوار التي تمر بنا جميعاً مجرد استعراض قصد توجيه النظر العادي

« من شب على شيء شاب عليه » جملة قصيرة شائعة بين الخاصة والكافة هي جماع ما أريد تقريره

يولد الطفل طليقاً من كل قيد . ومن المستطاع تربيته على الفضائل الاجتماعية منذ نشأته الأولى إذا ما تركناه على سجيته متناولين حركاته بالتقويم الرشيد دون افساد طبيعته

هذا يقتضي بلا ريب أن يكون لدى الأم فكرة عامة ؛ وهذا الادراك الضروري للأم ليس من الأمور الهينة في مثل بيئتنا ، لكن هذا لا بد منه ؛ وما دام لا بد منه فلا سبيل إلى اهماله . أما كيف تصل اليه فلا يتسع له مجال القول هنا ، ويكفي القول بأن الأمر من الأهمية بحيث يرخص في سبيل تحقيقه كل غال ، ويسهل في سبيل الوصول اليه كل صعب . وهل هناك غرض أسمى من بناء الأمة بناء متيناً ؟

أول ما تجب العناية به في أمر الطفل تربية جسمه طبقاً لقواعد الصحة ، والعناية بغذائه وبنظافته ؛ يتلو هذا في الأهمية ويقترن به في التبكير عدم تقديم كل ما يريد بغير تكليفه السعي اليه . يجب أن يربى على السعي لتتكون لديه فكرة الاعتماد على النفس . فإذا أشار إلى شيء ليحصل عليه ، يجب أن يقرب اليه بحيث لا يتسنى له الحصول عليه إلا بمحاولة جسدية . وإذا ما كان في مقدوره أن يحبو فيجب أن يوضع الشيء بحيث يحبو اليه ليصل اليه ؛ فاذا تظاهر بالاعياء فلتغض الطرف عنه ليسعى ثم يسعى . ومن يتأمل بر على الطفل أمارات الارتياح إذا ما وصل إلى غرضه بعد كد وسعى

وإذا ما سقط وهو يمشي فلا تظهر ارتياحنا ونسرع اليه نلتقطه مظهرين الحنو عليه ، بل نتركه ينهض بنفسه . فبهذا وبأمثاله تربى فيه صفة الاعتماد على النفس والثقة بها ، وهما من أقوى عوامل النجاح في الفرد ، وأمتن أسس البناء في الأمة

بلى هذا وذاك في الترتيب ، ويتقدمه في الأهمية ، أمر أعصاب الناشئ . ينبغي عدم الالتجاء بحال إلى تخويف الطفل لحمله على الاذعان برسم صور خيالية مرعبة في مخيلته . هذه الصور الخيالية المرعبة هي شر ما يحطم النفس البشرية ؛ هي الجرثومة الخبيثة لمرض الجبن ، أعصى الأمراض الاجتماعية على العلاج وأشدها فتكا بالجماعات

لست أقول بترك الطفل يعمل بلا تقويم ، ولكني أقول بأنه يجب تقويمه في عناية وبغير افساد خياله « بالمرهبات » . فاذا تقدم في السن فلا بأس باشعاره بسوء عاقبة الخطأ بحرمانه أو بضربه بالقدر الكافي مع الهدوء التام والقصد . ومن الواجب أن نظهر استحساننا واستهجاننا في مناسبات ذلك

بهذا يمكن أن نربي في الطفل قوة الاعتماد على النفس وحكم الأعصاب والشجاعة والثابرة . وإذا ما ترك المنزل إلى المدرسة أو المصنع على هذا فانه يكون مزوداً بالقدر الكافي للحياة الكريمة

وفي المكتب أو المدرسة وفي المصنع وفي الشركات ومصالح الحكومة ودار العمدة يمكن تناول هذه الصفات بالتقوية . ولكن أقوى الدعائم ما يكتسبه الطفل في المنزل سواء بالتقويم والتعويد ، أو بالمثل والقدوة

فالأولاد يكسبون كثيراً إذا ما شاع في البيت شعور المحافظة على الكرامة والقيام بالواجب والتمسك بالحق . إذا احترم كل من الزوجين الآخر ، ولم يتحكم الكبير في الصغير ، ولم يستغل ضعف الخدم لارهاقهم وظلمهم ؛ وبالجملة إذا حرص رب الدار على ألا يكون في بيته إرهاب أو إذلال أو استكانة ، ينشأ في الأولاد شعور بالعدل والعزة ، ونفور من الظلم والعدوان

والنشأة المنزلية الملهمة للحرية والاستقلال تهون ذيوعهما فى الجماعة . فالغالب فيمن لم يألف الاهانة فى صغره عدم قبولها إذا ما كبر . وإذا آنس المعتدى من فريسته المقاومة فكر كثيراً قبل الاعتداء . فاذا ما قوبل الاعتداء بمثله كف المعتدون مع الزمن ، فتشيع فى الجماعة روح الاعتدال نتيجة هذا التفاعل ، ويشع فى جوانبها نور الحرية ويصلب عودها وتقوى ويصعب النيل من حريتها واستقلالها

إيجاد هذه الروح فى الجيل الحاضر وتربيتها فى الجيل الناشىء ليس من الهين فى بلادنا مثلاً . لكن الأمر كما قلت عظيم . فليكن من أغراض دعاة الاصلاح تحقيق هذه الغاية بكل الوسائل . فبناء الأمة قوية مستحيل إذا لم تغلب روح الاستقلال والحرية والاعتماد على النفس والآباء . وكل بذل فى هذا السبيل له ما يبرره

خلاصة ما تقدم أن البذرة الأولى للتربية الاستقلالية فى البيت ، فاذا ما نمت به تعهدت خارج البيت بالمدرسة والمصنع ودواوين الحكومة ومكاتب الشركات والمنشآت الاجتماعية بوجه عام ، وكانت بذرتها القوية فى البيت مما يهون نموها وذيوعها وانتشارها فى الجماعة

حرية الجهر بالرأى

إذا نشأت غالبية أفراد الجماعة على الاعتماد على النفس والآباء ، فان الغالبية تجهر بالرأى فى غير خشية ولا خجل . والرأى يسمع فى غير اشمئزاز ويناقش فى غير تعصب أو تحامل غير طبيعى . وبذا تسير الجماعة فى غير كثير من الاحتكاك

أما إذا لم تكن الشجاعة والاعتماد على النفس والاقدام هى الصفات الغالبة ، فان حرية الجهر بالرأى تعز من جهة ، وقبول النقد النزيه يندر من جهة أخرى ، فيكثر العسف وتنتشر الاخطاء وتنحط الجماعة

التربية الاستقلالية ترفض بطبيعتها المداراة . وفى الأوساط الحرة لا تحرج ولا إحراج ، بل يأتى النقد النزيه بالطبع ويقابل كذلك . والحقيقة تظهر بتلاقى الآراء . أما فى الأوساط غير الحرة لانعدام التربية الاستقلالية أو ندرتها ، فالاقدام يندر ويندر معه النقد ومقاومة الظلم ، فيكثر الغرور وتكثر الأخطاء وينحط المستوى الفكرى والخلقى تبعاً لذلك ، وتضعف أداة السير إلى الأمام وتهن قوة المقاومة فتفقد الجماعة وجودها المستقل وتمسى خاضعة لمشيئة الغير

علاقة الحاكم بالمحكومين

أدوات الحكم مهما اختلفت ألوانه هى — ا — التشريع ب — القضاء — حـ — الادارة

ا — والمثل الأعلى للتشريع ، فى رأيى ، هو أن يكون أقرب ما يمكن الى التعبير عن الارادة المشتركة . وأعنى بالارادة المشتركة فى جماعة ما ملتقى الارادات الجزئية أو الارادات الفردية نتيجة تبادل الآراء وتعديل بعضها بعضا . وكلما كانت حرية الرأى مكفولة كبر مجال تمحيص الآراء وقربت ارادة الدولة ، مجمع الارادات ، من ارادة الجماعة وصدق تعبيرها عنها . وإذا كان القانون ، وهو ارادة الدولة أساسه هذا ، فانه يسهل تطبيقه كما يسهل تعديله بما يساير تطور الجماعة ، لأنه يعبر تعبيراً صادقاً — بقدر ما تقبله طبيعة الانسان — عن ارادة المجموع

هذا النحو فى التفكير يقودنا إلى تقرير أن الحكم النيابى أقرب أشكال الحكومات المعروفة إلى التعبير عن ارادة الجماعة أصدق تعبير ممكن . وهنا لا بد لى من الاشارة إلى اعتراضين :

قد يتساءل البعض : كيف السبيل الى سيادة الحكم النيابى فى الجماعات المتأخرة ما دام القانون هو ارادة الدولة ، وما دام مثله الأعلى هو أن يكون نتيجة ملتقى الارادات الجزئية ، وكانت الأغلبية جاهلة ؟

وجوابى على هذا أن هناك رغبة مشتركة بين مختلف الطبقات ، أو ارادة مشتركة مهما بعدت النسبة بين درجات التفكير . وأعنى بهذه الارادة المشتركة ارادة توفير أسباب العيش والأمن على النفس والمال . فاذا عملت على ترقية مدارك الفلاح ، ويسرت له سبيل الرى والصرف ، وأمنته على نفسه وعلى ماله ، فانك انما تحقق رغبته أو تنفذ ارادته . والشرائع التى تؤدى إلى هذا تعبر عن ارادته . وبالعكس إذا صدر قانون باقامة دور فخمة للتمثيل وقاعات للتصوير فى قلب الريف مع شدة حاجته للمستشفيات العامة والمدارس العامة ، فانك لا تعبر عن رأى سكان القرى بل تخالف ارادتهم . ويقال مثل هذا عند جميع طبقات الأمة . فاذا أبدى نائب رأياً عن جماعة فانه ، طبقاً لما تقدم ، لا تناقض بين فكرة

الارادات الجزئية وبين الحكم النيابي في الجماعات المتأخرة ، ولو لم تظهر الارادة الجزئية مستقلة منفصلة . وبتقابل ارادات الطبقات المختلفة يعدل بعضها بعضاً حتى تلتقي في نقطة تحقق الارادة المشتركة بالقدر العملي اللازم لسير الجماعة إلى الأمام

أما الاعتراض الثاني فنشأ عن وقائع ما بعد الحرب ، تسمعه من أفواه أساتذة الجامعة كما تسمعه ممن يهتم للكلام في الشؤون العامة من بين معلمي المدارس الأولية ، ويتردد صداه بين أوربا وأمريكا وآسيا ، ذلك هو الاعتراض على صلاحية الحكم النيابي بنجاح نظام الحاكم المستبد العادل . يقولون إن المستبد النزيه انتشل ايطاليا من مخالب الفوضى ووضعها في مصاف الدول المرهوبة الجانب في زمن قصير . وفي مثل هذا الزمن انتزع المستبد النزيه تركيا من أحضان الموت وأوقفها على قدميها يخطب الأقوياء ودها اليوم بعد أن كانوا يتنافسون في اقتسامها بالأمس ، ويقولون عن جماعات أخرى مثل هذا . ويخرجون من المقارنة بأن الحكم النيابي لم يعد المثل الأعلى لنظم الحكم في وقتنا هذا

غير أن المستبد العادل من خوارق الطبيعة . ولا يصح وضع قاعدة عامة على أساس الشذوذ . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالمستبد لا يقبل معارضة . ولابد أن تفقد الجماعة روح النقد في مثل هذا الجو . فاذا ما انقضى عهد سحر الزعيم لسبب ما ، سارت الأمة نحو الضعف بأسرع مما سار بها سحر الزعيم المستبد الى القوة

هذا الى أن إحاطة الزعيم بكل شيء أمر مستحيل . ولا بد له من مجلس يرجع اليه ، وإن لم يتقيد بما يبدي فيه من آراء . فاذا لم يكن هناك ، في ذلك الحيز الضيق ، حرية رأي فان الزعيم لا يسمع في الواقع إلا صدى صوته . ولما كانت الاحاطة بكل الأمور متعذرة كان خطأ التصرف هنا أمرا لابد منه في حالات كثيرة . وإذا قدر للحكم النيابي ، بشكله الحالي ، أن يتلاشى ، فلا ينفع الجماعة نظام المستبد العادل . بل ينفعها نظام النقابات (Syndicalism) . وفي هذا النظام لا بد من استقلال الرأي والحرية لتمحيص الأمور قبل إبرامها

لنعد الآن إلى تناول موضوع التشريع لنقول إن حرية الجمهر بالرأي ألزم ما تحتاج اليه أداة التشريع . هذه الحرية لازمة داخل الأحزاب لزومها خارجها . فنقد رأي الزملاء والزعماء في حرية لا غنى عنه لتقرير أقرب الآراء للسداد وأقلها تعرضاً للسقوط إذا ما هاجمها خصوم الحزب ، والامساك عن النقد مصانعة أو جبناً قد يؤدي إلى قرار خاطيء تسهل معه المهاجمة من الخارج . وهذه الحرية لازمة كذلك في مجالس التشريع وعلى صفحات الجرائد وفوق المنابر خارج هذه المجالس . وإبداء الرأي في غير مواربة من أقوم سبل تغيير هذه الهيئات برغبات الجماعة ومواطن الصواب . ولن يكون هذا ما لم تكن غالبية الجماعة قد نشأت نشأة استقلالية . فلا يجهر برأيه إلا من قويت عنده روح الاستقلال وكانت لديه الشجاعة وفي خلقه الأقدام

ب — والمثل الأعلى للقاضي هو من يتعرف وجه الصواب ويحسن تطبيق روح القانون على حالة الجماعة التي يطبق فيها ، ويدرك حق الادراك رسالة القاضي وأثره في المجتمع فلا يخضع لغير القانون والحق والعدل . هو الذي يتحرر من نزعات نفسه ومن المؤثرات الخارجية في تصرفه كقاض . هو الذي لا يخشى في الحق لومة لائم

والتربية الاستقلالية هي أقوى حصون القاضي ضد نزعات النفس . والكرامة الذاتية والثقة بالنفس هما أقوى دافع يدفعه إلى الدرس المستمر والتفكير غير المنقطع فيما يحيط به ليستطيع إبلاغ رسالته على خير وجه . وهما اللتان تلهمانه رفض الايحاء الخارجي مهما كان مصدره

وإذا آنس القاضي المدرك لسمو رسالته ضعفاً في روح الجماعة أو شيوع عوج في خلقها — وهو بحكم مركزه ميزان حساس — عالج النقص في أسباب أحكامه تارة ، وباسداء النصح إلى السائلين أمامه تارة أخرى . وما أشد وقع النصيحة المقترنة بالعبرة !

وإذا آنس ، بحكم الممارسة ، نقصا في التشريع أو عيباً أو غموضاً جعل من أغراضه ، في قراراته ، اكمال القانون إذا ما اتسعت لذلك النصوص دون ارهاق المعنى . فاذا لم يكن هذا مستطاعاً فانه يخاطب الجهات التشريعية لاستكمال القانون ويعمل لتحقيق هذا الغرض بكل ما يستطيع

(يتبع)

محمد عبد الباري